على طاولة المدى

واقع ومشكلات الحياة الجامعية في العراق..
(جامعة بغداد انموذجا)

الدكتور مالك المطلبي: البنية الجامعية لا تزال على الضد من الاختزال
الدكتور محمد حسين الاعرجي: الآليات والاجراءات على حالها ولم يطلها التغيير

٢-١

بغداد / المدى

تواصلا مع نهج "المدى" في التعاطي مع الشأن الثقافي والمعرفي والاكاديمي ، اقامت مؤسسة المدى للثقافة والاعلام والفنون ، ندوة بعنوان "واقع ومشكلات الحياة الجامعية ، جامعة بغداد انموذجا" وقد شارك فيها عدد من الاكاديميين الذين سلطوا الضوء على محاور الندوة التي أقر محاورها وأدارها الزميل علي ياسين ، في البداية تحدث الدكتور مالك المطلبي عن محور "هجرة الاكاديميين العراقيين" قائلا: الحديث عن الجامعة ، حديث يتسع ويطول ، لذا نقول هل ننطلق من تصور نظري للجامعة ؟ أم ان الندوة مخصصة لتفكيك ونقد الوضع الجامعي في العراق؟ وأجد ان محاور الجلسة تحاول ان تسلط الضوءعلى مجمل الاوضاع الجامعية الراهنة ، وعلى أية حال ، لايمكن الغاء ماضي الجامعة ، أعني جامعة بغداد والتي هي الانموذج الذي اتخذته الندوة عنوانا لها.

اعتقد ان ماضي الجامعة هو الذي يمدها بعناصر وانساغ استمراريتها، وعلينا بالتاكيد ان نفرق بين جامعة تعنى بالعلوم الانسانية واخرى تعنى بالعلوم الصرفة، وتجربتي الخاصة تنحصر في كلية للعلوم الانسانية، ذلك لان كلية العلوم الصرفة لها معاييرها وفلسفتها وانماط التفكير فيها، ومشكلة كليات العلوم الانسانية تكمن في ذلك الكم اللغوي الكثيف، ولهذا أجد اننا نشكل ظاهرة صوتية في ظاهرة صوتية، ولهذا فقدنا الضبط، فيما هو موجود وفاعل في جامعة العلوم الصرفة من خلال الرموز والاشارات،بينما نحن نستعمل اللغة المتخمين بها، ولهذا لم يستطع المشرفون على المناهج ضبطها ولا حتى نمط التفكير لدى الطلبة،لاسيما ونحن نعيش في عصر الاختزال، فيما البنية الجامعية لاتزال قائمة على الضد من الاختزال،ويتضح هذا في معظم الاطاريح المقدمة والتي هي على قدر كبير من الضخامة اذ تتراوح صفحاتها بين ٤٠٠ الى ٧٠٠ صفحة.

ويضيف المطلبي: لنلق نظرة على ما كان يحدث في الماضي، فأنا اعتقد ان الجامعة سلب من خصائصها الاساسية الكثير خلال حقبة النظام السابق، بمعنى ان هدف الجامعة قد تغير ليصبح هدفا غير جامعي، ومن هنا بدأت هجرة الاكاديميين وبالتحديد منذ عام ١٩٧٨ حتى صارت هجرة منظمة وذات طابع جماعي، وتحولت تدريجيا الى شبه منظومة، ويتساءل المطلبي: كيف حدث هذا ؟ في الحقيقة حدث عندما سمح للتدريسيين الجامعيين بالسفر الى خارج العراق ولاغراض شتى، منها بالدرجة الاساس، تأمين مصالحهم الخاصة، واخرى لاسباب سياسية بسبب عدم انسجامهم مع سياسات النظام السابق، فضلا عن ذلك كانت هناك هجرة الى الداخل وبخاصة اولئك الذين ضاقت بهم سبل الهجرة الى خارج الوطن، وهم اولئك الذين كانوا ضد تيارات النظام الجارفة، ولسد الفراغات التي تركها المهاجرون عمد النظام السابق الى فتح أبواب الدراسات العليا على مصاريعها، ومن هنا بدأت هذه الدراسات التي كانت على نحو موارب تتراجع، لان الطالب لم يكن مهيأ لمثل هكذا دراسات، سيما وان حصوله على البكلوريوس جاء بمستوى لا يؤهله لخوض غمار الدراسات العليا، وهكذا ارتدى هذا الطالب العباءة السوداء وجلس على كرسي المناقشة والتي غالبا ما تسلك مسالك عجيبة وغريبة، ذلك لان مقدمات النقاش لاتشبه النتائج.

ويواصل المطلبي حديثه قائلا: الغريب في الامر أن المشرفين على رسالة هذا الطالب او ذاك يسومونه سوء العذاب وينتقدونها بأشد عبارات النقد حتى ليتوقع المستمع انهم سيرفضونها، لكنهم في نهاية المطاف يقبلونها بدرجة امتياز او جيد جدا! وكانت الرسائل والاطاريح تؤجل لثلاثة أشهر وعلى هذا أصبح الجيل المهاجر، جيلا حقيقيا، نشأ في الجامعة الحقيقية، واعني بها الجامعة الشرقية وليست الغربية.

القضية الاخرى، هي قبول الطلبة الذين هم اقرب بعلاقاتهم الى دوائر النظام، اما الان، فقد تغير الامر اذ توافرت لدى الطلبة والاساتذة القدرة على التشخيص وحرية في القول والنقد، ولكن المفاجآت الامنية صارت هي الضاغطة على الاستاذ الجامعي وقريبة منه، وتحولت الى نوع من محو الذات الذي كان يعاني منه اساتذة الجامعات ابان النظام السابق، اما الان، فقد استبدل هذا المحو بالتخلف والاشتباك العشائري.

لا ندري لماذا نصفق ؟!

ويشدد المطلبي قائلا: عشرون عاما ونحن نصفق ونهزج حتى احمرت أكفنا من التصفيق ولاندري لماذا نصفق؟! في الوقت الراهن، لا أحد يرغم الطلبة على ترك صفوفهم للاشتراك في احتفالية، وباستطاعة الطلبة والاساتذة السفر في أية لحظة يشاؤون، ولنعد الى البناء الذي اذا تجذر يقوى على تصدير وعيه، بمعنى ان الطالب خلال حقبة النظام السابق، كان يسعى للرسوب، وهذه هي القاعدة الاساسية آنذاك، لذا فان المتخرجين في الدراسات العليا، ما عدا استثناءات قليلة، ولنعد الى القاعدة الاساسية أقصد، "قاعدة الرسوب"، فقد كان الطالب يتخاصم مع الاستاذ لو منحه درجة النجاح! خشية التحاقه بالخدمة العسكرية عند تخرجه، اما الان فان الطالب حر في اختياراته، اذ بامكانه ان يكون تاجرا وباستطاعته السفر حيثما يشاء، اي انه دخل الى الكلية بمحض ارادته وعلى وفق الحرية المتاحة له، لكنه لايزال يحمل العيوب السابقة ذاتها، تجده يتلمس شتى الاعذار كي لايدخل مع الاستاذ الى قاعة الدرس، اي ان تركيبة الطالب الثقافية والمعرفية لم يطرأ عليها أي تغيير، كما ان الدراسات العليا تتعرض الى خطر كبير، لانها لاتزال هي الاخرى تحمل الروح المجانية لاننا لانملك الادوات اللازمة لانتاج طالب دكتوراه، وكما معروف هناك تسع أو عشر أدوات تحتاجها هذه العملية.

وفي مداخلة للدكتور محمد حسين الاعرجي: قال فيها: الهجرة ما زالت قائمة الان، ومن خلال تجربتي الخاصة، فقد سبق وان رقيت الى درجة استاذ في ١٩٨٩/١٠/١٧ في جامعة الجزائر التي هي عضو في اتحاد الجامعات العربية، وعندما عدت الى العراق أعيد تعييني بعد التي واللتيا بدرجة مدرس، وكانت هذه مفاجأة لي، ولما سالت عن الاسباب، قالوا لي، بانك سافرت وانت بدرجة مدرس، وهذا يعني لي وللاخرين امثالي، ابعادنا عن الاشراف على طلبة الدراسات العليا، في الوقت الذي كنت قد أشرفت على اكثر من طالب في جامعة الجزائر وكلهم نالوا الماجستير والدكتوراه.

وفي تساؤل لـ"المدى" عن بقاء الاليات والاجراءات على حالها أجاب الاعرجي:

- نعم هي نفسها ولم تتغير، وهي كمن ينشئ دارا جديدة بطابوق قديم!!.

رد المطلبي على مداخلة الاعرجي بالقول:

بعد السقوط مباشرة، طولبنا بايقاف الدراسات العليا، وهنا أضرب مثلا من كلية الفنون الجميلة،اذ ان هناك اكثر من ١٤٠ طالبا هم على استعداد للتقديم على الدراسات العليا لنيل شهادة الماجستير أو الدكتوراه، ولكي تنتج هؤلاء تحتاج الى عدد من المشرفين، فضلا عن المصادر والخبراء الاكفاء، وكل هؤلاء غير موجودين، فضلا عن شبكة المعلومات المعارفية، وكما أرى ان طالب الدكتوراه من المفترض ان يجيد لغة ثانية كي لايكون ذا معرفة ناقصة، لاسيما وان العالم أصبح كما يوصف بانه قرية كونية صغيرة، هنا اقول من الزيف حقا ان باستطاعة الطالب اخذ هذه اللغة من أصحاب الكفاءات، وكررنا طلب ايقاف الدراسات العليا مرارا وتكرارا لمدة خمس سنوات بغية التفرغ لمن مازالوا يدرسون هذه الدراسات، ومن ثم اعادة فتح باب القبول مجددا بعد تهيئة عوامل وعناصر الانتاج الضرورية، لاننا لانملك في الظرف الراهن القدرة الاجتماعية على احداث التحولات المطلوبة. في الغرب الطالب المتخرج لايبحث عن الوظيفة في مؤسسات الدولة، هناك قواعد للعمل وانتشار هائل في الحياة في مختلف المفاصل، في حين تمثل الوظيفة للطالب العراقي الام التي يتدفأ باحضانها. بعد السقوط، عاد بعض الاساتذة من المهاجر، واتذكر انني ذهبت الى وزير التعليم العالي الاسبق

– الحديث مازال للمطلبي- وقلت له، افرش طريق العائدين بالورد والزهور، لان هناك محاولات لسحب اساتذة الجامعات العراقية الى خارج حدود الوطن، والذي يعود من المهجر، تعد عودته قضية جديرة بالاهتمام وبخاصة في الظروف الراهنة، اما عن الاجور، فقد قلت له قسم راتبك الشهري معهم، على اية حال بعد اسبوع واحد تم تعيينهم وأحدهم الان يشغل منصب عميد كلية، المفارقة " "system لم يكن يوافق على تعيينه، لكن بعد عشرين يوما ينصب عميدا، فهذا أمر مميز وجد مقبول.

الذي ألف عشرين كتاباً ألا يستحق لقب أستاذ!

بعد ذلك تحدث الدكتور محمد حسين الاعرجي عن مشكلة الكفاءات العلمية في الجامعات العراقية قائلا: لقد اتيحت لي فرصة اللقاء بوزير التعليم العالي والبحث العلمي الاسبق، بغية تصحيح لقبي العلمي حيث ساءلته: الذي يعود الى العراق وهو حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة ميشغان أو بطرسبورغ أو موسكو أو وارشو كيف ستعاملونه ؟ فأجابني: نحيل اطروحته الى خبراء لقراءتها ومن ثم اقرارها أو رفضها، فقلت له، الذي الف عشرين كتابا ألا يستحق ان يمنح من خلالها لقب استاذ؟ على أية حال مازلت ومنذ عودتي والى الان، مدرسا وان هناك من طلبتي من يتقاضى راتبا أعلى من راتبي!!.

وفي عودة للدكتور مالك المطلبي الذي علق عن هجرة الكفاءات الان بالقول: ان الهجرة القائمة الان ليست، هجرة أمنية وحسب، بل ان "system" يصب في صالح الهجرة.

وفي معرض رده عن سؤال لـ"المدى" عن الهجرة السابقة التي تعرفنا على أسبابها ومسبباتها وما هي المعالجات التي من شانها ايقاف الهجرة أجاب المطلبي قائلا:ان هذا القول مبالغ فيه، مصطلح الهجرة هو مصطلح اعلامي، جرى تفخيمه وتكثيفه لغايات اعلامية، ذلك لان لدينا الان قاعدة جامعية واسعة في جميع محافظات العراق وكذلك في اقليم كردستان، لدينا بحدود ٦٥٠٠استاذ جامعي في عموم العراق، اذن ماذا لو غادر منهم ١٠٠ او ٢٠٠ او حتى ٥٠٠ استاذ او تدريسي الى خارج العراق ؟ هل نسمي هذه المغادرة هجرة؟ مثلما ذكرت، ان الاعلام الذي يتمثل بحقل من الضوضاء التي تغطي على صوت ٦٥٠٠ استاذ وتدريسي، الاعلام الان لايسلط الضوء على الهجرة المعاكسة.

في السياق ذاته، يشير الدكتور الاعرجي معلقا: ان العهد الملكي، كان عهد كفاءات، انتج كفاءات كبيرة أمثال، الدكتور مصطفى جواد والدكتور محمد مهدي البصير والدكتور جواد علي والدكتور عبد الجبار المطلبي والدكتور علي جواد الطاهروالدكتور مهدي المخزومي وزد ماشئت من الاسماء اللامعة في سماوات العلم والمعرفة، لكن بعد ثورة ١٤ تموز، حدث شرخ كبير في بنية المجتمع العراقي وخاصة بعد الانقسامات السياسية الخطرة، وبدت واضحة من خلال التوصيفات التي جرت على ألسنة المواطنين، فهذا يسمي ذاك شيوعيا يساريا وذاك يسمي آخرين بانهم قوميون رجعيون وهكذا. ان الشيء الجديد في هذه القضية هو الوضع الاقتصادي حيث اصبحت العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة، والمفارقة الغريبة، هي ان الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية كانت تمنح الدكتوراه للطلبة الشيوعيين، في الوقت الذي تمنح فيه مصر الدكتوراه للطلبة القوميين، لذلك كانت الفرص العلمية ينظر اليها على أساس الولاء وليس الكفاءة، في وقت ان الرعيل الاول من الاكاديميين الافذاذ قد طالهم الموت، ثم جاءت كارثة تبعيث العلم التي بدات عام ١٩٧٤ والتي كانت تقضي بعدم قبول الطلبة في الدراسات العليا ما لم يكونوا بعثيين، أما الكارثة الاخرى فهي تتمثل بتحجيم الكفاءات العلمية الحقيقية، فمثلا، اذكر ان الراحل الدكتور صلاح خالص أمضى سنوات خدمته الجامعية وهو يحمل لقب "استاذ مشارك" وكذلك الراحل الدكتور عناد غزوان، ويتساءل الاعرجي: لماذا استاذ مشارك؟ لان الترقية العلمية، كانت تشترط لنيل لقب استاذ، ان يقضي المشمول بها خمس سنوات للانتقال من درجة استاذ مساعد الى لقب استاذ، واذا ما استوزر هذا الاستاذ لاتحتسب له مدة الاستيزار الا بعد ان يعود للتدريس مرة اخرى، وبعد هذه المدة لابد من تقديم خمسة كتب تعرض على خبراء يستقدمون من خارج العراق، ومن ثم يجتمعون منفردين ودون ان يعلم احدهم بالاخر،ليقرروا ان كانت هذه الكتب اصيلة ام لان فاذا اجمع أربعة منهم على اصالتها وامتنع الخامس يصبح المعني استاذا مشاركا.

جحيم دانتي
دانتي، ما زال يتحدث إلينا بعد ٧٠٠ عام

ترجمة: فاروق السعد

هنالك عمالقة أدب اثنان، احدهما انكليزي، والآخر ايطالي، يتربعان على خريطة اوربا: وليم شكسبير ودانتي الكيري: من حيث الترتيب الزمني، ان دانتي اكثر بعدا؛ فقد مات بالملاريا في عام ١٣٢١ قبل ما يقارب ٢٥٠ عاماً من ولادة شكسبير. ومع هذا فان اعظم اعمال دانتي، قصيدة طويلة في ثلاثة أجزاء تسمى " الكوميديا الإلهية"، ما زالت تعيش وكأنها كتبت البارحة، وتظهر ترجماتها الى الانكليزية بشكل منتظم بين الحين والآخر. ان نسخة هذا العام لسيان اوبرين، و هو شاعر ترعرع في شمال انكلترا، هي ترجمة نثرية "للجحيم" ، وهو الجزء الأول من ثلاثة أقسام تقع فيها الملحمة (الأخريان هما "المطهر" و"الفردوس"). في عام ٢٠٠٢ اخرج سياران كارسون، وهو شاعر ولد في بلفاست، ترجمة لنفس المقطع غمرت بسبب عنف النزاع السياسي و الديني في مدينته. وفي التسعينيات، كتب روبرت بنسكي، شاعر امريكي وحائز على تقدير خاص، نسخة مفعمة بالحيوية و مرنة. و، في بدايات القرن التاسع عشر، كان جون كيتس، قد أنهك بدانتي الذي كان قد ترجم الى شكسبير. هكذا تستمر العملية. فالشعراء و الكتاب يواصلون اعادة صياغة دانتي حسب الصورة التي يختارونها. فلماذا لا ننساه؟ هنا القصة، باختصار. حاج منعزل- وهو دانتي ذاته- يتيه في ظلام الغابة، و مقاد الى الأسفل من قبل الشاعر الروماني فرجيل الى الجحيم لتأمل المصير المرعب لمن كتبت عليهم اللعنة. ومن ثم تتم قيادته خلال المطهر، وفي القصيدة النهائية، الى الفردوس، حيث يقابل صورة متغيرة المظهر لبياتريسا، الفتاة التي أحبها في فلورنس عندما كان شابا. تنتهي الملحمة بمشهد عن عظمة الرب. وكما تبين سيرة ذاتية جديدة حصيفة لباربارا راينولدز، ربما كان دانتي قد شاهد حياته ذاتها في حياة أنين أثميه، وهم مربوطين على عمود في جحيم نتن. كان ذلك يمثل مصيره كرجل، وضرر رده على ذلك المصير، وهو ما يعطي طاقة الديمومة تلك لشعره. وعند إلصاق تهمة به بسبب الانقسامات الحزبية الفاسدة، ارسل دانتي الى المنفى بعيدا عن حبيبته فلورنسا وهو في أواسط الثلاثينيات. ولم يعد ابدا. ان عمله العظيم، الذي كتب في المنفى، هو كتابة عمل درامي عن مصيره ذاته، هجوم موسع على أعدائه، وبشكل عارض، انه اول عمل فخم يكتب في موطنه توسكان. لقد كان متحمسا، طوال حياته، للحاجة الى خلق لغة قومية مكتوبة بإمكانها ان تتخلص من قيود اللاتينية. في "الكوميديا الإلهية" قام هو بذلك، بخلقه بمفرده أداة تعبير اصبحت لغة الأدب في ايطاليا. ما زالت لغة دانتي تعد لغة مثيرة بالنسبة لشعراء يستخدمونها لأنها ما زالت تلمس، لغويا، تحت متناول ايدينا. اقرأ الأسطر الثلاثة الأولى لافتتاحية المقطوعة الشعرية، ولاحظ بان كلماته المنتقاة هي اقرب الى الايطالية الحديثة من كلمات شكسبير بالنسبة الى الانكليزية المعاصرة.

في يوم ما، بمنتصف طريق رحلة العمر،
وجدت نفسي داخل ظل غابة،
لان الطريق الملائم قد اختفى.

ان هذه اللغة المباشرة هي التي تساعد على جلب عالم دانتي القروسطي، مع كل رمزيته المعقدة والمحيرة، اقرب إلينا مما يمكن ان نتصور. وان "جحيم " السيد اوبرين، على احسن تقدير، يتسم بسهولة القراءة و الوضوح، سوية مع القوة العضلية.

قطعنا منحنى واسعاً عندما تجولنا
حول البحيرة بين الارض الجافة و المستنقع،
تسمرت عيوننا لرؤية رجال موتى يلتهمون الطين...

ان من أصعب الامور في التعامل مع دانتي هي عملية نقل مناقشاته اللاهوتية و الفلسفية الملتوية غالبا الى الانكليزية مع المحافظة على سلاسة القراءة. ان السيد اوبرين يقوم بهذا غالبا، بملاءمته بين الوضوح والتعقيد. لكن المكان الذي فشل فيه هو في مخطط القافية. فسجع دانتي معقد ABA, BCB, CDC, DED وهكذا. وبحبك البيت الشعري سوية، فان خطة القافية تلزم الشاعر بالانتقال من مقطع شعري الى آخر. لكن السيد اوبرين يتخلى عنها، بدون تفسير. ان عمليه ملاءمة خطة الإيقاع صعبة جدا- رغم ان البعض قد حاول. فعلى سبيل المثال، ان الأبيات التي اقتبستها السيدة رينولدز في سيرتها الذاتية تتبع الأصل، ولكن الترجمة غالبا ما تبدو خرقاء. يتحدث ألينا دانتي بصوت إنساني عاطفي الذي غالبا ما يكون محزونا وانتقاميا، وهو يتجول خلال العالم الغامض للاهوت السري. ولكن العديد من الوحوش التي تنغمس في أعماق خياله المبدع نحن نتمكن من تمييزها. انها تشبهنا. وهو ما قد يفسر كوننا لا نزال ننبش في شعره الرائع.